آراء نقدية في الادب المعاصر

بقلم : هشام جعيط

الادب المعاصر له اتجاهات متعددة ومذاهب شتى ٠ لكن الطابع الذى علب عليه هو الطابع التنبئي الثورى ٠ فقد كان النتاج الأدبي والفني نتاجا متمما لأشكال الحضارة الأخرى وهو بالأخص منبثق عن التبع الفكريين للارسطوقراطيات الحاكمة ٠ فالشعر البلاطى هو أهم التعابير الفنية فى الأدب العربى وأدباء البلاط الكلاسيكيون فى فرنسا إنما كانوا ، فى نطاق ادعاء أساسى الى الانسانى الأزلى ، خاضعين لذوق الملك وحاشيته ٠ لقد استمكن الاتجاه الثورى المستقل فى الادب ابتداء من القرن الثامن عشر واستقر استقرارا فى القرن التاسع عشر بتحرر العملية الخلقية الابداعية من كل أداة حكمية غير هدفها الاصلى الداخلى أى أن هذا التحرر ضرب على الضغط الاجتماعى بجميع أشكاله ما بين قوانين الذوق الارسطوقراطى أو البرجوازى وبين المطامح الفنية الغامضة للجمهور ٠ وعاد الأثر خلاقا بنفسه لوسط نفسانى يتأثر به راضيا كان عنه أو ساخطا ٠ بل لقد تحرر الأدب حتى من أحكام النقد المهنى والنقاد المهنيين الذين صاروا يكيفون مقاييسهم بالقيم الوسطى التى داخلت الشعور الفكرى الجماعى تبعا لتطبعه بما بثه الخيال الخلاق ٠

إن هناك سوسيولوجية للأدب وتحليلا نفسانيا للخلق الفنى ولكن النقد الصحيح ـ وإن تأثر بهما ـ تواق لما هو أكثر ٠ ذلك بأن الناقد وإن وضع نصب عينيه المحيط الأصلى الذى نتج عنه هذا الشكل لا ذاك من الادب وإن وعى الأجهزة المسببة والمسهلة له يمكث دوما فى مستوى حياتى مطلق متعلقا بالأثر وما يرمز إليه ٠

فكل اثر بشرى متأثر بشروطه الأصلية فردية كانت أم اجتماعية لكنه يتجاوزها بما فى النفس البشرية من وزن حرية وقدرة انطلاق ٠ تقيد الأثر الأدبى بالبيئة والعصر والشخص والتيارات ينفسخ أمام الشرارة الخلاقة وأعنى بها لحظات التوتر الروحى التى تقفز الخالق الانسان عبر قيود الحالى وحدود الحالى ٠ والنقد الحق إذن توفيق صعب المنال بين الاحساس بالمسببات والأعراض وبين الشعور النضاح بمطلقية الأثر وبما ينطوى عليه من كثافة وتغرب ٠

ولئن كان النقد كذلك فهو أيضا رد فعل إنسان على همسات إنسان وهو بذاته مقيد باختبارات فكرية سابقة أو منكشفة وفى الآن نفسه تجاوز لوجدانيتنا وتحيزاتنا وشعور مع واهتزاز مع ٠

* * *

الأدب هو الحياة وليس بالحياة وهو إرضاخ للواقع بوسيلة الفكر وتحد له أو بالعكس هزيمة مؤسفة أمامه • الآن ندخل من النقد الذاتي ـ لأثر ما أو تيار ما ـ الى النقد الماورائي الموحد المتعالى أى الى نظرات متجهة الى ما هو مشترك فى منتثرات أدب وعظمة خلق • فماذا فى مصير البشر ما يجعله يتأدب أو يتفنن ؟ فيه أن الطفولة مرت وأن عراك الحياة جملة متسلسلة من التوفيقات والتوترات وأن الأدب هو الشوق الى الحق الحياتي l'authenticité أى شعور متألم وفى الآن نفسه آمل الى ما يمكن للانسان وما لم ينجزه الانسان : شوق الى المستحيل العذب ، الحق يقال لهذه هى إذن النواة الأصلية للتكدر الأدبى : إغناء الواقع ، إغناؤه الى ما لاحد • ومن هنا ضربت فى الأدب النزعات التنبئية الثوراتية • فلئن كان الفلاسفة الفرنسيون معبرين عن مطامح البرجوازية المستنيرة ضد أشكال الضغط القديمة لكفاهم هذا جلالة تنبؤية • لكنهم فى الحقيقة عاشوا على طبقة ـ بالمعنى الموسيقى للكلمة ـ ثقافة كاملة استمعوا الى همساتها المتعمقة المتأصلة • ولئن كان **فلوبار** فى القرن التاسع عشر ثائرا على سلم القيم البرجوازى المسيطر لأسباب شخصية اجتماعية فلقد كان كذلك يطمح الى عالم أخير ، الى إصلاح الحياة وما فيها من شوائب •

إصلاح الحياة ! رسالة عظمى أثقلت كواهل عظماء من المحررين والقادة والمفكرين والأدباء • إصلاح الحياة باسم نداء داخلى فى قلب الانسان المتحير • لكن هنا نتوقف هنيهة أمام تراكمات من سوء النية لم يسلم منها الأدب الحديث أو المعاصر •

فباسم ماذا ـ أولا ـ يطلب منا أن نقيم فكرة التساؤل والحيرة وتشكيل المشاكل حول كل موضوع mise en question ا باسم ماذا رفع الغضب والتشاؤم الى أجل المراتب الأخلاقية وهو ألم فى قلب ذاته وعذاب • باسم ماذا ندد ببساطة النفس السليمة وبالبسمة الصافية الى الغير • أباسم طموح قوى الى الخير المطلق أجعل من قلبى روضة شر تزرع فيها الزهور الشائكة • فان كان حقا أن القعر الذى يستقيم عليه الأدب حب الحق الحياتي فالوساطة التى توخاها للوصول الى هذا الهدف وهى الكلمة ـ فى رواية أو مسرحية أو أقصوصة ـ هى وساطة مغالطة • وإنا لنتصفح الأفلام المعاصرة والنتاج المعاصر فنجد فيه دوما ترنيمة الشقاء فى هذه الحياة وقساوة الانسان وكل هذا حق لكن الحياة كذلك حب ورحمة وتضامن • إن سوء نية الأدباء مأتاها خروجهم من تجارب وجدانية الى تعميمات مصورة حول كنه الحياة : هروبهم من الشخصى ومن شخصى مضطرب الى عمومى يفرض فرضا على أنفس قد تكون سلمت من

الاضطراب كما أن النزعة التنبؤية هي توق الى المستقبل • لكنى أريد أن أعيش حاضرى مدفوعا بماضى فاتحا عينى أمام مستقبلى • سوء نية كذلك تنديد فلوبار **بالغباوة** ورفضه لمجتمعه رفضا مصبوغا بكل ألوان الأسى • فلماذا الحنق لو لم يؤمن هو بنفسه بسلم القيم المرفوض ظاهرا ولو لم يشته فى قرارة نفسه أن ينجزه فيحوز بذلك رضى الغير واعتباره • لقد وعيت أن آثار فلوبار – وقرته من الأول – متجاوزة لشروطها النفسية ذلك لأنه صب حيراته فى قالب موضوعى له قوانين • ولكن الأدب الحالى عاد نفثا لهمسات وجدانية وتعبيرا مجردا من كل قانون مهنى فنى – تقنى – لسخط آخذ عروقه فى عدم انسجامات مع واقع لم يرفض فى الحقيقة • أن أريد وأشتهى أن لا ينحرف الأدب عن رسالته الأصلية الأصلية : تقويم الواقع من اعوجاجاته الدنيئة ، سخط عن كل ما أكل قلب العلاقة البشرية فى حقيتها الحياتية ، نزوع الى بناء المستقبل ولكن أيضا وفاء بالماضى ، تفتح أمام هذه النسبية الغريزة المنبسطة أمامنا والتى هى حاضرنا ، احترام لوساطة الكلمة حتى لا يبتلع الهدف الوسيلة إيمان حق بالقيم ولو نبذها المجتمع ، شعور بسوء النية ورفضها ولم لا ؟ الحب دوما والرحمة دوما والذهاب الى الغير وحتى هذا الاتزان المسكين الذى كم سخر منه ناقد أوروبى ضال (mystifié) •

هشام جعيط

نسبية الحكم

ولم أقصد (*) فيما ذكرته من شعر كل شاعر مختارا له سبيل من قلد أو استحسن باستحسان غيره ولا نظرت الى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ولا المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره بل نظرت بعين العدل على الفريقين وأعطيت كلا حقه ووفرت عليه حظه فانى رأيت من علمائنا من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه موضع متخيره ويرذل الشعر الرصين ولا عيب له عنده الا انه قيل فى زمانه ورأى قائله ولم يقصر الله الشعر والعلم والبلاغة على زمن دون زمن ولاخص به قوما دون قوم بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده وجعل كل تقديم منهم حديثا فى عصره وكل شريف خارجيا فى أوله فقد كان جرير والفرزدق والاخطل يعدون محدثين وكان أبو عمرو ابن العلاء يقول لقد نبغ هذا المحدث وحسن حتى لقد هممت بروايته ثم صار هؤلاء قدماء عندنا ببعد العهد منهم وكذلك يكون من بعدهم لمن بعدنا •

(*) الشعر والشعراء لابن قتيبة الدينورى المتوفى سنة 276 هـ. ص 7 و 8 – دار الفكر – بيروت بدون تاريخ •

نحن والنقد



اقنعة بلا وجوه

بقلم : محمد مصمولي

« ... إن الموهبة الاساسية للكاتب الجيد هى أن يملك
« جهازا » فى داخله يفضح الزيف والكذب ولا يؤثر فيه
مؤثر ــ هذا هو رادار الكاتب ... » همنغوى

عندما يكون النقد بلا نقاد ، فانك ترى العبارة السهلة المجانية ، مركبا لكافة هواة السهولة والطفولية والكسل الفكرى ... وما أكثرهم ! !

فذا يلقى على أقدام عروس الفن زهرة ، وذاك يلقى عمامة من عهد اهترأت ملامحه ، والأخير يلقى قاموسا كان نائما بين زوايا التاريخ وأضابيره الصفر بمتحف الجماجم ...

أما عروس الفن الرفيع ، تلك الحسناء العسيرة المنال ، فانها تقف مشفقة وساخرة ، فى ذات اللحظة ، أمام ابتهالات المتغزلين تحت أقدامها ، اللاهثين بالعبارات الجاهزة المستوردة ، وبالالفاظ المعلبة المستعارة ، وبالتزلف الرخيص المتمسح بالأعتاب وبالاشواق العادية الواهنة ...

وبقدر ما تجهضه الصحف فى شتى أنحاء العالم العربى وغير العربى ، فيروعك هذا الصراع النقدى الذى تنظمه قافلة الدخلاء على النقد ، الغرباء فى متاهة الفن إذ ذاك تتعنت ملامح ذوقك ، وتخال النقد أفعوانا مشنوقا من عهد بعيد بعمامة قذرة فى إطار اجرامى رهيب ، جمد الاشياء والحيوانات وحتى العيون الفائضة من محاجرها ...

وقد تلجأ ، وأنت بين أدغال مطالعتك ، الى التدخين ، فى نزعة هروبية لتقطع سلاسل القلق حتى بالوهم والدخان ...

لكن هيهات ! !

فهذه نماذج الاشباح تطاردك باقنعتها المضحكة وكأنها وليدة نهار خريفى مديد .. شمسه مريضة ، وساعاته عرجاء وضوؤه كالعجين ...

وترى الوجه الاول .. لنموذج من نماذج النقد ، وهو وجه جامد كالمومياء قد تناثرت عليه حشرجة الافكار الهرمة الميتة ... ولو كانت لك نعمة التخيل ــ ولعلها ماساة فى هذا الظرف بالذات ــ ولو قدر لاذنيك أن تلتقطا من العدم

صوت ذلك الناقد الجامد ، ذى الأفكار المتحجرة ، إذن لراعك أن تصغى لكهنوت الظلام والضباب ينفث فلسفة العجز باسم الاعجاز ، ويخنق فى « التوتر » الفنى المشبوب صوت الحياة ليحبسه فى قمقم مقاييس مجده الصغير ٠٠٠

واذا بك تنفر من هذا النقد الذى يحيل الدم فى أعصابك الى رماد ، والنار المتوثبة فى عروقك الى مادة لزجة ملساء من القلق الهيولى الاكول ٠٠٠

وتظن بعد هنيهات من التناسى والنكران ، أنك تخلصت وحلا لك احتساء الراحة فى كؤوس من الصفاء الحسى ضمن جوك الذاتى وقد تقشعت غيومه ، وابتسمت سماؤه وأزهاره ، تظن ذلك ، وبطلان ما تظن ٠٠٠

فذا وجه آخر ، من وجوه النقد ، يباغتك ٠٠ ويقتلع منك اهتمامك ، ويجبرك على التفرس فيه ، والتحديق به ٠٠٠

وأنى لك الخلاص الذى تروم ، والفرجة التى تشتهى وأنت تدفع دفعا ، وتجذب جذبا ، أمام الزحام والصخب على تربة واقع فضفاض ، قلب ٠٠ قرازه مستحيل ! !

وتفتح عينيك على الوجه الثانى من النقد فاذا بك بازاء كدس من الملامح تتهدل كتلا كتلا صغيرة حول ثغر ثرثار متشدق كأنه بوق أو طبل أو مصنع كليشهات ٠٠٠

وتعير سمعك لذلك الثغر ، بعد أن أطل منه لسان أحمر سرعان ما لعق شيئا من على شفته العليا ، تصغى اليه متقززا ، فاذا به يقول نقدا دونه التعاليق الصحافية أو تلك العجالات التى يرسمها قلم بعض القراء على هوامش الفقرات ٠٠

واذا بهذا الذى ينتسب خدعة الى النقد ، يختار مواطن النزف فى التجربة المبدعة ، ليغرز فيها قلمه الخشبى « لمملح » واذا به (أى بالناقد) يسقط فى تكالب معيشى راعب بين أشداق البدائية والاقليمية ، ويتظاهر بأنه قد فتح كل الالغاز الى درجة تخطى بها جمهوره ، وأصبح مزمجرا فى جموع القراء الذين لم يولدوا بعد ٠٠ يزمجر بعبارات تتصارع حروفها فى ما بعضها بعض كالحشرات تحيا بالتهام الحشرات ٠٠ حاملة فى كيانها بذرة افناء كيانها ٠٠

اثر هذا الوجه ، لا شك أن الشارع يستغرقك ، فتمضى هاربا من هذا النقد الذى تسربت اليه الهجنة لتشابه ملامح أصحابه ، تهرب وقد تبصق رواسب تلك الرؤيا فى أول جدار ٠٠٠

وفيما أنت تسير ، وأسفاه ، تحنيك الخيبة فى رحلتك الادبية عبر الكتب والمجلات ، تجدك وجها لوجه مع عدة وجوه لبعض حملة القلم فى بلادك ، ممن احترفوا « النقد » كبداية مباركة فى سلم الابداع والخلق ، وفى حلبة السباق والرهان فى مجال الابتكار والسبك ٠٠٠

ثم يبدأ الحوار فاذا بكل واحد منهم يتدحرج : نسرا فذئبا ، فحدأة فبومـا فجرذا ، فشيئا لا ينعت ولا يوصف ولا يتصور ٠٠٠

فذا يتكلم بأستاذية من شرفة عالية بلا شرف ، وذاك بعينين مثل « عداد » التاكسى يعدد أخطاء غيره متناسيا خطايا أخطائه، وهذا وراء أقنعة ايديولوجية مرقعة ، يحدق مثل حماة تدبر مكيدة لكنتها ٠٠ الخ ٠٠ الخ ٠٠

وقد تمتلىء أعماق ذاتك ، وانت تصغى لهذه التعاليق بما يشبه الملح ٠٠ لا سيما ، وأدب بلادك ، يتحفز الى مسايرة مدنا الثورى الخلاق فى ربوعنا الخضر ، بفضل اخلاص المخلصين لمصاير الفكر ولسحر البث ولاشراقة الكلمة والحرف ٠٠٠

فأنت إن أخلصت لنفسك وتخلصت من أخشى ما نخشى من دواهى الحيرة والاشكال ، فى حصيلة السنوات العشر الأخيرة ٠٠٠ تدرك ما تحقق ويتحقق من الفوز أو بعض الفوز فى أدب الشباب ٠

فالقصة ، فى ربوعنا ، رغم عمرها الوردى بدأت تتحفـز خصـوصا بأقلام الشباب ، الى فتح النوافذ على كياننا الأخضر لتنفذ الى قضايـا شعبنـا والى قضايا الانسان المتوثب فى قلقه المصيرى وتشوقه الى آفاق الضوء ٠٠ والخير والجمال ٠٠٠

وكذلك شعرنا المنسوج من خيوط شمسنا الربيعية ، الأزرق العبير ، الحى الومضات ، هو الآخر ، قد بدأ فى اطلالته الخضراء وأخذ ينبض مع الانسان ومع الشعب ومع اللحظة الوجودية البعيدة عن التقليس اللفظى المحنط ، البارد الحس ، المسطح التجربة ٠٠٠

ولكنك ، اذا ترصدت النقد وتحسست صدقه وأبعـاده فانك تـرى أنه فى كافة البلاد العربية لا يزال فى حدود المحاولة على الاقل بالقياس لتقدم مختلف شؤون الحياة العربية وانطلاقها نحو الاكتمال السريع والتبلور الناضج ضمن آفاق الرؤيا الجديدة ٠٠٠

أما الذين يمكن استثناؤهم ، من قائمة التائهين فى بيداء النقـد ٠٠٠ فهم أقل من القليل ويمكن حصرهم فى طائفتين اثنتين ، أخلصتا قدر الجهد للفن ، وطمحتا قدر الجهد الى التقعيد النظرى ، لكنهما لم توفقا كل التوفيق الى الامتزاج الكلى مع الفن والى العراء الكامل المنشود ٠٠٠

الطائفة الأولى ، آلت على نفسها أن تحكم من السطح ، قائلة بلا تردد : هذا فن هذا جميل • هذا الى الفناء ٠٠ هذا الى الخلود ٠٠٠

تلك الطائفة ، هى التى تؤمن بالنقد الذى يمكن تسميته بالنقـد الحكمـى « المستورد » من الخارج ٠٠٠

أما الطائفة الثانية ، فهي خلافا للأولى ، وتجنبا لمزالقها ، تبنت منطلقات جديدة بهدوء وبلا طفرات ، وعمدت الى أن تكون متفتحة ، محبة ، منطلقة بواسطة الشرح والتبسيط للمحاسن دون المساوىء ، ملقية بعض الأضواء على اختلاجات التجربة وأبعاد الفكرة ، وأضواء وظلال الصورة مقصرة عادة ومبالغة أحيانا ، وبين الافراط والتفريط تضيع « الحقيقة الابداعية » .

لكـن !

أنى لهذه الطائفة أن تدرك تلك الذروة من الصفاء التى تجعلها تحيا حياة المبدع ، فى ازمته الابداعية ، وفى رؤيته لدى عكس تلك الازمة ضمن أنماط وقوالب « استطيقية » أدبية ...

تلك الطائفة ، هي ما تسمى بطائفة النقد التقليمي ...

وإذ أن الطائفتين الآنفتى الذكر ، ليستا الا تابعتين لنظريتين فى النقد المستورد ، فان اللوم هنا ، ليس فقط على نقادنا ... بل على النقد فى شتى صوره ... وحيثما كان ...

ولعل كل الذين يشعرون بعطف حقيقي على الأدب والفن ، ينظرون بألم الى جل النقاد الذين يظلمون الفن ويقصبون له أسوء النعوش وينحتون له من رخام النظريات أقبح القبور والتوابيت ...

الناقد مهما تنزه ومهما حن الى الكمال وحنا على التجربة الفنية ، فهو دائما ، ذلك « الآخر » ، ذلك الرجل الثاني ، ذلك الدخيل ، ذلك المتطفل ...

والنقد مهما سما وتجرد ، ومهما أخلص لرفعة الفن ولفورة الدفقة الانفعالية فى تجاوزها التاريخى لكافة القيود والتقنيات ... مهما كان النقد فهو مغامرة ينهد اليها صاحبها فى هنيهات هاربة يدور فيها فى فراغ ولا أخطر ...

وتلك المغامرة فى فضح أسرار الروعة باسم النقد ، تنزل الى الوجود عرش الفن الذى هو قبل كل شيء جناح أثيرى ، أجمل جناح ، يحلق بالفكر الانسانى فى أجواء لا تحدها مقاييس الزمان والمكان ، فى فيض لا متناهى ...

هذه هي أقنعة النقد ولا جدوى فى البحث عن الوجوه .

ولعل القارىء الكريم ، يعفينى من عناء مجازفة تعداد المغامرين !

ولعله ، يعفينى من الدعوة الى انكار فضل تلكم الاقنعة المزيفة ! والا فما جدوى إقبالى على تقمص ثوب الناقد لأنقد النقاد ؟ ما الجدوى لولا اعتقادى بأن البراقع هي الأخرى تخدم الفن وتحفزه لأن يزداد سموا ورفعة ؟

محمد مصمولي

66/11/10

النقد والبحوث التاريخية

بقلم : محمد فنطر

تحتوى مادة « نقد » على معانى كثيرة مختلفة وتشهد بذلك القواميس كلسان العرب مثلا • غير انه من العسير علينا الوقوف على أقدمها زمنا ونشير بذلك الى المعنى الجوهرى الذى تولدت عنه تلك المعانى الكثيرة وتفرعت • انه عمل عسير لفقرنا لأداة تساعدنا ونعنى بذلك معجم تاريخ اللغة • فلا شك ان فقهاء اللغة العربية فى حاجة ملحة اليه كلما ارادوا الالمام بتاريخ مادة عربية والاحاطة بتطورها الحرفى والمعنوى عبر الزمن وبالظروف الحضرية التى حتمت ذلك التطور الامر الذى من شأنه أن ينير طريق البحث العلمي فى ميادين شتى •

اما اذا عدنا الى لسان العرب قصد النظر فى لفظة « نقد » ومعانيها رأينا ان لها علاقة متينة بالدراهم • فنقده الدرهم يعنى أعطاه إياه وانتقد الدراهم أخذها وقبضها على ان فعل نقد لا يحل دائما محل أعطى كما ان فعل انتقد لا يجوز استعماله دائما عوض أخذ او قبض • من ذلك نلمس متانة الروابط التى تصد بين مادة نقد والدراهم او ما كان يحل محل الدراهم • والنقد والتنقاد هو تمييز الدراهم وإخراج الزيف منها • فما هى العوامل التى ربطت بين مادة « نقد » والدراهم ؟

فلا شك ان اللفظة أقدم زمنا من الدراهم وهى ظاهرة حضرية لا تتعدى حدود القرن الثامن قبل المسيح وهو امر حديث بالنسبة للعصور الساحقة التى تنغمس فيها جذور اللغة العربية • اجل ان اقدم وثيقة مخطوطة عربية لا تتعدى حسب ما وصل اليه البحث فى هذا الميدان حدود القرن الرابع او الثالث بعد المسيح وهى نقيشة امرؤ القيس لكن ذلك لا يتضمن حداثة لغة العرب بل لدينا من المعطيات ما يجعلنا نعتقد بقدمها ومن فقهاء اللغات السامية من ابرز فى لغتنا عناصر تعود الى ما يسمونه باللغة السامية المشاعة **le sémitique commun** اى تلك اللغة التى تولدت عنها اللغات السامية الاخرى وتفرعت كالأكادية وقد تخاطب بها الساميون فى وادى الرافدين والارمية والعبرية والفنيقية وغيرها• ذلك يجعلنا نفترض ان مادة عربية كنقد لها تاريخ عريق بل كانت قبل ان تكون الدراهم ومن ذلك نستنتج ان معناها الجوهرى الاولى بعيد عن الدراهم •

فما هو اذن هذا المعنى الجوهرى الاول؟ انه عمل عسير يستوجب معرفة اللغة العربية معرفة دقيقة وليست لنا هاته الكفاءة كما يستوجب معرفة بعض

اللغات السامية الاخرى حتى يتمكن الباحث من تعقب المادة ويقف على معانيها لدى اقدم الوثائق التى تحتويها وبالتعقب والمقارنة قد يستطيع الوقوف على معنى المادة الاصيل · ولئن نظرنا فى عنصر « نقد » وجدناه فى لغات سامية كالعبرية والسريانية ومعناه يشير الى حجم صغير جدا كفتيتة الخبز وقد اقر التوراة معنى الفتيتة « سفر اليسع الآية الخامسة من الاصحاح التاسع » · كما تستخدم مادة « نقد » العبرية للدلالة على ما نسميه بالتطرة عند الحديث عن الماء او المطر مثلا ويقال ايضا نقطة » هذا وتجدر الاشارة الى روابط تصل بين نقد ونقط · قلنا ان « نقـد » فى العبرية تعنى شيئا حجمه صغير كفتيتة الخبز ونجد هذا المعنى فى قولك مثلا « تنقطت الخبز » اى اكلته نقطة نقطة اى شيئا فشيئا · هذا وما نسميه نقطة فى العربية يعبر عليه فى العبرية بلفظة اشتقت من مادة « نقـد » كل ذلك يجعلنا نثق بالعلاقة التى تصل بين المادتين الساميتين « نقـد » و « نقط » وقد اقرت تلك العلاقة فى القاموس العبرى الذى اقامه وليام غيزينيوس (William Gésénius) لكتب العهد القديم · من ذلك يبدو ان المادة تشير فى معناها الاولى الى حجم صغير كحبة الكرويا ويقال لها النقدة او كقطرة الماء او فتيتة الخبز او ما يبقى على القرطاس اذا نقدته بقلمك اى ضربته · وتلك هى النقطة وهى تشبه ما يبقيه منقار الطائر اذا نقد الجوزة ·

غير ان هذا لا يوقفنا على صلة النقد بالدراهم الامر الذى يحتم علينا متابعة البحث · والملاحظ ان مادة « نقد » لها مشتقات عديدة منها النقدة وهى الصغيرة من الغنم ويثبت لسان العرب ان النقد غنم صغار حجازية والنقاد راعيها وجاء فى حديث لعلى : ان مكاتبا لبنى أسد قال : جئت بنقد أجلبه الى المدينة · وقال علقمه : « والمال صوف قرار يلعبون به على نقادته واف ومجلوم » · وهنا تجدر الاشارة الى قيمة الحيوان فى الحضارات القديمة وخاصة فى بلاد تغلب فيها الارض القاحلة بل ليس للارض قيمة حتى كانت تقدر الثروة بما يكسبه المرء من حيوان · بالحيوان تقدر الثروة وبالحيوان تقدر الاشياء الاخرى ولعل من يبحث فى الأدب العربى القديم قد يجد اصداء عن تجارة المقايضة عند العرب واستخدام الحيوان لضبط ثمن الاشياء المختلفة او بعبارة اخرى استخدام الحيوان كعملة للبيع والشراء · انى لم ابحث فى هذا الموضوع وهو يتطلب اطلاعا كبيرا مدققا على الادب الجاهلى القديم ·

غير انه لدينا من الوثائق ما يثبت ان تلك الطريقة التجارية كان معمولا بها فى حضارات عديدة · فمما أتى فى إلياذة هومير ان امة وقع بيعها بأربعة ثيران واشترى احد ابطال الملحمة مجموعة من الاسلحة بتسعة ثيران فكان الثور اذن يقوم عند اليونان مقام العملة التجارية وفى اللغة الفرنسية الفاظ عديدة تعنى الدراهم وما يتعلق بها مثل **pécunieux** وهى صفة لمن له دراهم كثيرة وتنحدر تلك الالفاظ من عنصر لاتينى « **pécus** » يعنى القطيع من الحيوانات مما ينبىء باستعمال الحيوانات كعملة تجارية فى الحضارات الآرية العتيقة ·

ولئن عمل العرب بهاته الطريقة التجارية البدائية فأى حيوان كانوا يستخدمون ؟ ان الناقة اشهر حيوان عندهم ومهر المرأة العربية عدد من النياق فهل كانت الناقة تقوم مقام العملة التجارية عندهم ؟ قد يكون ! غير ان ذلك لا يمنع نظريا قبائل العرب من استخدام عملة حيوانية اخرى كالنقد تلك الغنم الصغار الحجازية وقد اشتهرت بصوفها حتى قال الأصمعي : أجود الصوف صوف النقد • ولعل فى ذلك أصل العلاقة التى اشرنا اليها بين الدراهم ومادة نقد وقبل ان يقال نقده الدرهم لعلهم قالوا نقده فى معنى اعطاه تلك الغنم الصغار مقابل شيء آخر • على ان كلامنا هذا لا يتعدى حدود الافتراض اما النقد والتنقاد فى معنى تمييز الدراهم واخراج الزيف منها فالارجح ان هاتين اللفظتين تعودان الى مصدر آخر نلمسه فى قولك « نقد الثمرة باصبعه » لينظر فيها ويتناولها بالفحص كما يفعل الطير عندما ينقد الجوزة بمنقاده • ولعل الصراقين كانوا ينقدون الدراهم نقرا بالاصابع أو بأداة اخرى أجهلها • فسميت الدراهم اذن نقودا اما نسبة الى النقدة وهى الصغيرة من الغنم الحجازية • أو لعلها سميت نقودا لأن الصراف نقدها فاثبت قيمتها وحسنها ولعله كان ينقدها نقرا ويحكم لها او عليها حسب الصوت التى تحدثه عند القرع •

ذلك هو النقد بالنسبة للدراهم ويقال نقد الكلام اى اظهر ما به من العيوب والمحاسن ولكن هل قالوا نقد الكلام قياسا على نقد الدراهم ؟ ذلك ما يعسر علينا البت فيه • مع انه ينبغى الا ننسى ما قلناه فى المادة العبرية « نقد » وفى علاقتها المتينة بالمادة العربية نقط وقد استخدمت اللفظة العبرية « نقد » للدلالة على اشكال صغيرة مستديرة وضعها الربانيون فوق احرف التوراة او تحتها حتى يتمكن القارىء من تلاوة آيات الكتاب المقدس دون اى تحريف وقد سمى اولائك الربانيون « نقدنيم » لأنهم وضعوا النقط وضعوها حسب مفهومهم للنص وذلك بعد النظر والتأمل فيه •

وقد استخدمت النقط فى العربية للتمييز بين الحروف المتشابهة الأشكال كالياء والتاء والثاء كما استخدمت النقط لتجسيم الحركات قبل ان ترتدى أشكالها الحالية • فمن أراد تنقيط كلمة وجب عليه التأمل فيها حتى يقف على معناها وعند ذلك يستطيع رسم النقط عليها • وسبق أن اشرنا الى معنى النقطة وهى الاثر الذى يبقى على القرطاس اذا نقدته برأس قلمك •

فالتنقيط هو النقد بذاته معنى ومادة وهو عمل يسعى من ورائه المرء الى وضع نقط تحت الحروف أو فوقها حتى يميز بينها وبين الالفاظ التى تتركب منها ويفهم المعانى المستكنة فيها وقد يؤدى ذلك العمل بالتالى الى اخراج محاسن الكلام وعيوبه • أليس ذلك ما نسميه بالنقد ؟ فالنقد اذن فهم قبل ان يكون حكما وقيل نقدا لانهم كانوا ينقدون الحروف بأقلامهم قصد تنقيطها• كما كانوا ينقدون الدراهم بأصابعهم او بأداة معينة قصد تعييرها •

أما اذا نظرنا الى النقد فى البحوث التاريخية وجدنا له مرحلتين ففى المرحلة الاولى يوجه المؤرخ الناقد اهتمامه نحو الوثائق من حيث هى ويتناولها بالبحث والفحص مستخدما كل ما لديه من وسائل علمية اخرى حتى يثبت تاريخية تلك الوثائق . فالمؤرخ الذى يبحث فى الحضارة البونيقية مثلا على ضوء وثائق عديدة مختلفة يجب عليه فى مرحلة اولى النظر فى جميع تلك الوثائق ليتثبت من صحتها ويتبين جليا تاريخيتها او يجب عليه بتعبير آخر أن يتناول الوثائق المتعلقة بأبحاثه وينقدها حتى يتمكن من ابراز الصحيح منها والأصيل ويترك جانبا كل وثيقة مزيفة .

ومشكلة الزيف عويصة متشعبة فى ميدان البحوث التاريخية والاثرية بالأخص . لقد انتشرت حركة الزيف فى القرن التاسع عشر واعترت ميدان الآثار حتى اصبحت الابحاث فى هذا الحقل مشكوكا فيها نظرا الى كثرة الوثائق المزيفة التى تخللت المجموعات الأصيلة . ففى السنوات الاخيرة شاع نبأ يتعلق بنقائش فنيقية كشف عنها الغطاء بالعالم الجديد الامر الذى قد ينبىء باكتشاف القارة الامريكية من طرف بنى كنعان قبل ميلاد عيسى بألف سنة . سقط ذلك النبأ كالصاعقة فى دنيا المؤرخين وسارع بعض من لا دراية لهم بالاساليب العلمية الحديثة فى الابحاث التاريخية وآمنوا بذلك النبا الخطير إيمانا تسانده الوثائق حسب رأيهم فكانت الهفوة الكبرى لأن نقد تلك النقائش اى النظر فيها وفحصها فحصا علميا أسفر عن تجريدها من حقوق الوثائق التاريخية الفنيقية وحكم ان لا قيمة لها الا اذا اضيفت الى ما نعرفه فى الزيف عبر التاريخ .

من ذلك نفهم حرص المؤرخين على معرفة الظروف التى أحاطت عملية كشف الغطاء عن الوثائق الأثرية حتى اذا قدم لهم تمثال او نقيشة او تحفة فنية تراهم يبحثون عن كيف ومتى واين وقع العثور عليها وتراهم يشترطون الدقة والتفصيل عند الجواب مفتشين عما تكنه تفاصيل الجواب من وسائل تساعدهم على النقد الخارجي اى على تمييز الوثيقة وتعييرها . وتجدر الاشارة هنا الى تشابه عمل المؤرخ بعمل الصراف فهذا ينقد الوثائق والصراف ينقد الدراهم وكلاهما يعمل على التمييز والتعيير .

فالصراف ينقد الدراهم مستخدما وسائل فنية خاصة كالوزن والقرع . أما المؤرخ فتراه يفحص الوثيقة متسائلا هل تتناسب والظروف التى يدعى انها تنتمى اليها . فان قدم اليه تمثال وقيل انه ينتمى الى الحضارة الرومانية فى عهد الامبراطور سابتيميوس سيفاريوس (Septime Sévère) نظر لذلك التمثال فاحصا اياه من حيث طريقة نحته والادوات التى استخدمت فى صنعه. فان لم يجد شيئا يناقض ذلك الانتساب اعتبر التمثال وثيقة تاريخية يمكن استنطاقها عند دراسة الحضارة الرومانية فى ايام الامبراطور الافريقى الشهير.

ولئن لاحظ ان ذلك التمثال قد نحت حسب طرق وبأدوات لا وجود لها فى ذلك العصر وجب عليه طرحه من ملفه الخاص بالفترة التى ذكرنا .

لا شك ان الذين تعاطوا الزيف تجارة لم يترددوا فى خلق مخطوطات وتقديمها لمن كانت لهم هواية جمعها ودراستها ونشرها . لقد سمعت الاستاذ تيـــرييى Thiriet اكثر من مرة اثناء دروسه التى القاها بدار المعلميـــن بتونس يندد بالذين تعاطوا صناعة المخطوطات المتعلقة بتاريخ أوروبا فى القرون الوسطى ولقد عثر على كثير من الوثائق الرسمية والاجازات والشهادات المزيفة وقد تشترى تلك الوثائق المزيفة وتدمج فى المجموعات الأصيلة وقد ياتى المؤرخ ويستند عليها وعلى غيرها لضبط التاريخ وحل مشاكله الا انه يتـــدم عملا مسموما بعيدا عن الحقيقة التاريخية . وقد وقع بعض المؤرخين فى مآزق كهذه اذ قد يكون عسيرا على الباحث مهما كان صبره ودأبه فى العمل ان يميز الاصيل ويستند اليه ويقف على الزيف ويطرحه .

ومهما يكن من امر فمن واجب المؤرخ ان ينظر فى المخطوط قصد تعبيره والا يستنتج منه شيئا قبل التعبير فان كان صحيحا أصيلا أخذه بعيـن الاعتبـار وان كان من الزيف ندد به حتى لا يقع احد المؤرخين فى الفخ . وان عسر عليه البت فى مخطوط ما تركه جانبا الى ان يصل الى حقيقة امره . ولعل ذلك ممـا يجعل تجارة المخطوطات تكاد ان تكون سرية . ولا شك ان الخبراء فى تعبير المخطوطات من الذين يخافهم المطففون .

فليس علينا ان نؤمن بقيمة مخطوط الا بعد تعبيره كما ان قيمة المخطوط لا تتجسم فى محتواه بل تتجسم قبل شىء فى اصالته . وبعد اثبـات الاصـالة نتعدى الى المحتـوى فنستنطقه ونستخـدمه لحـل المشاكـل التـاريخية التى تتصدى لنا .

ان الخبير يستخدم وسائل شتى لتعبير المخطوطات تختلف حسب الظروف ومصدر المخطوط. وكنت أود ان يذكر لنا الاستاذ المنجد ما القى محاضرتـــه المتعلقة بالمخطوطات العربية موقف الاختصاصى فى هذا الميدان ازاء مشكلة الزيف . فهل يتصدى لها الباحث ؟ وان كان ذلك فما هى الطرق التى ينبغى ان يتوخاها حتى يتقى شر المزيفين ؟

وما هى الوسائل التى تمكنه من تمييزها وإخراج الزيف منها ؟ .

فالمصادر الأدبية اذن تستوجب النقد قبل ان توسم بوسـام الوثائـــق التاريخية . ومن الوثائق الأدبية الأصيلة ما يستوجب نقدا يسعى الناقد من ورائه الى تعيين الملف الذى ينبغى ادراجها فيه . فهذا شاعر رومـــانى تغنى بعليسه وبحذقها وبطولتها كما تغنى بحبها لبطل طروادى يدعى اينيوس . هل يجوز ان نعتبر ملحمة فيرجيل كوثيقة تاريخية تساعدنا على فهم المشاكـــل المتعلقة بأولئك الذين أسسوا قرطاج ؟ وهـل يمكن ان نعتبـر لقـاء عليسـة

باينيوس حقيقة تاريخية ؟ ذلك ما يرمي اليه الناقد ايضا ! عملية يقوم بهـا الباحث قصد تمييز ما أتى في ملحمة فيرجيل وتعبيره • فان كانت صالحة أدرجها في ملفه قصد الاستنطاق والاسترشاد وان ثبت انهـا من باب الخيـال وليس لها من التاريخ شيء طرحها •

وكثيرا ما تكون الحقائق التاريخية تحت طي حجاب كثيب ينسجه الشاعر قصد تلوين الاحداث بألوان بديعة مختلفة خلابة والشاعر لا يعبأ بالتاريخ اذا انتشى وقد يحتكي ذلك الحجاب تدريجيا مع مر الزمن خاصة اذا لم تسجل الاحداث التاريخية كتابيا الا قرونا بعد حدوثها •

وقد يتجسم ذلك الحجاب الذي يسدل على الحقيقة التاريخية الصريحة في اضافات وتفاصيل وصفية وظروف مكانية وزمانية كثيرا ما تعوق المؤرخ عن الوصول الى هدفه المرسوم • لذلك ينبغي ان يقف المؤرخ وقفة المحترز الحذر لا يستنطق نصا ولا يستند رواية الا بعد النظر فيهـا ونقدهـا نقـدا يثبت صلوحيتها كوثيقة تاريخية او ينفيها • وتجدر الاشارة الى نسبية تلـك الصلوحية • فهذا نص نرفض ان يكون وثيقة تاريخية فيما يتعلق بالبـرابرة ولو تحدث عنهم على انه قد يجوز ان يندرج في قائمة الوثائـق التاريخيـة المتعلقة بالحضارة الرومانية • فما قاله فيرجيل عن عليسة وتأسيس قرطـاج يمكن استغلاله والرجوع اليه لا عند البحث عن الحضارة البونيقية بل خاصة اذا اردنا دراسة الحضارة الرومانية في القرن الاول بعد المسيح • لان النص يتحدث في ظاهره على عليسة وقرطاج وقد انعكست فيه صورة الحضـارة الرومانية في القرن الاول بعد ميلاد عيسى • هذا ويذكر القرآن ان سيـارة وجدت يوسف في البئر فأخذته وشرته « **بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين** » ـ سورة يوسف آية عدد 20 ـ هل يمكـن ان نعتمـد هاته الآية ونقول ان القبائل السامية في عهد يوسف كانت تعرف الدراهم؟ ولئن فعلنا لوقعنا في خطا تاريخي فادح لأن الدراهم من المظاهر الحضرية الحديثة جدا بالنسبة الى تاريخ يوسف ولكن تحدث القرآن عن الدراهم حتى يفهمـه العربي اذاك وكانت الدنانير والدراهم اليونانية معمولا بها في الجزيرة قبيل الاسلام • فالآية اذن لا تنبئنا الدراهم في ايام يوسف بل هي وثيقة تاريخية بفضلها نعلم ان الدرهم كان معروفا في الجزيرة العربية ايام الدعوى الاسلامية•

من ذلك نرى ان النقد في مرحلته الاولى يهدف الى معرفة ظواهر الأمـور وباطنها ونظرا لكثرة الملفات المتعلقة بدراسة الماضي فلا شك أن كل ما صنعته البشرية بيدها او بعقلها او بشعورها يمكن ادماجه في ملف معين • ان المرحلة الاولى من النقد التاريخي تتضمن تعبير الوثيقة مهما كان نوعها حتى يمكـن معرفة الملف الذي اليه تعود •

اما وقد اجتاز المؤرخ المرحلة الاولى من نقد ما لديه من وثائق وميزها ووضع قائمة المصادر التي ينبغي الرجوع اليها عند دراسة مسالة ما بقي له ان ينغمس

فى صميم الموضوع اى ان يعمل على بعث الماضى وقيامته ولكن كيف يجب على المؤرخ ان ينظر الى ما لديه من وثائق وشهادات عديدة مختلفة وقد تكـــون متناقضة أحيانا ؟ كيف يستطيع الخروج من هذه الأجمة الكثيفة ولا وجود فيها لسبيل يستطيع تتبعه حتى يصل الى الحقيقة التاريخية وليست لديه إبـرة تمكنه من معرفة شماله وجنوبه وليس له منار ينير طريقه حتى لا ينـزلق فى الخنادق والمستنقعات ؟

فغالبا ما نرى المؤرخ يقدم صورة عن الماضى اقتبسها من المصادر المختلفة التى عاد اليها وهى صورة لا نجدها فى اى مصدر من تلك المصادر بل قد نجـد البعض منها فى كل المصادر • فلقـد قدم لنـا المـؤرخ اذن صـورة نسجهـا بالاستناد على وثائق كثيرة الامر الذى ينم عن اختيار المؤرخ وتلك هى المرحلة الثانية فى النقد التاريخى •

يطلع على هذه الوثيقة فيأخذ منها شيئا بعد الاختيار وينظر الى هاته التحفة فيلمس فيها ظاهرة من ظواهر الحضارة ويجعل منها عنصرا من عناصر اللوحة التى سيقدمها لنا عن الماضى الذى هو بصدد بعثه من جديد • ان عملية تفكيك الوثائق الى عناصرها الاولية واختيار البعض منها لرسم لوحـة المـــاضى هى المرحلة الثانية فى النقد التاريخى • والخطر ان تطغى شخصيـة المـؤرخ فى تفكيك الوثائق واختيار عناصر اللوحة والوانها •

ولئن كان ذلك لذهب بنا الشك الى الاحتراز وقد تكون اللوحة غير مخلصة للماضى الذى تحكيه •

ومن الذين ذهب بهم الشك شوطا كبيرا فى هذا الميدان يجدر ان نذكر المؤرخ الفرنسى ch. v. Langlois فكان يخاف الانحراف عن الحقيقة التاريخية ولو بقيد أنملة ودفعه ذلك الخوف الى الاكتفاء بعرض الوثائق التاريخية الخطيرة ويأبى أن يضيف لها شيئا كالحكم على محتواها اوله بل يغالى فى الاحتراز والتحرى حتى يأبى طريق الاستنتاج ذلك لانه يخاف ان تطغى شخصيته على شهادات الذين عاشوا احداث الماضى فيبرزها حسب نظرته لا حسب نظرة الذين شاركوا فى سبكها وعاشوها بدنيا وفكريا • لقد صنف Langlois اربعة كتب عن الحيـاة فى فرنسا فى القرون الوسطى ، وحاول جهده ان لا تؤثر شخصيته على الوثيقة ولا تدخل عليها اى تغيير فهو يقدمها مع انه يبقى بعيدا عنها •

ففى مصنفاته الاربعة التى ذكرناها نراه يسند الكلمة الى الادباء والمفكرين وغيرهم من الذين تركوا شيئا تنعكس فيه صورة فرنسا فى القرون الوسطى وعلى القارىء حسب رايه ان يربط بين الامور وان يتمم بعضها ببعض ويوفق بينها وللقارىء يعود حق الاستنتاج •

الا ان هاته الطريقة العلمية الموضوعية تنطوى على خطر عظيم وهو العبث بالوثائق التاريخية وعدم الجدية فى استنطاقها ورسم لوحة الماضى بعد اختيار

عناصرها من مختلف الوثائق التى ثبتت اصالتها • لان القارىء قد لا تكون له الكفاءة فى اقتباس الحقيقة التاريخية من الوثائق التى قدمت له • وليس لكل قارىء ان يصل الى معرفة فرنسا فى القرون الوسطى من خلال ما قدمه له المؤرخ Langlois • ولئن فعل لأخطأ وانحرف عن الحقيقة التاريخية فتكون الطامة الكبرى • ولا شك ان عبء المسؤولية فى ذلك يعود على المؤرخ فيصبح احترازه وتجرده هفوة إزاء التاريخ وقد تسبب انكماشه امام الوثائق وحرصه على الموضوعية فى تلويث التاريخ • ان استعفاء المؤرخ فى ظرف ينبغى تحمل المسؤولية والاقدام على الاستنتاج لينم عن عدم الثقة بعقل الانسان كما ينم عن كفر بالتاريخ •

والى جانب الذين يغالون فى التحرى والاحتراز ويقفون وقفة الاستعفاء امام الوثائق التاريخية نجد من يغالى فى تشريح الوثائق وتحليلها والحكم على محتوّاها أو له حتى يبتعد عن الحقيقة التاريخية بطغيان شخصيته على الوثائق عند الشرح والتحليل • فمن المؤرخين من ينظر الى الماضى بمنظار الحاضر اعتقادا منه ان التاريخ يعيد نفسه وهذا خطأ فادح قد يتسبب فى قلب الأمور رأسا على عقب اذ فى الحقيقة لا يعيد التاريخ نفسه والأحداث تتولد عن ظروف خاصة توجد وتتطور أثناء وجودها • كما ان الحدث التاريخى يحدث بصفة ديناميكية اى يحدث ويتطور ويتلون بألوان مختلفة أثناء حدوثه حتى انه من العسير أن نقف على كل العوامل التى تعمل فيه وتلونه بألوانها • هذا وقد عبر الفيلسوف اليونانى ديموقريط (Démocrite) عن تطور الظروف وعن استحالة توفرها أكثر من مرة قائلا : لا يستطيع المرء السباحة مرتين فى نهر واحد • ذلك ان النهر يتغير مع مر الزمن فتسبح فيه مرة دون أخرى • وقد يبدو لك انه فى الامكان الغوص فيه ثانية لكنك تغوص عند ذلك فى نهر تغير واديه وتغيرت مياهه حتى اصبح نهرا آخر •

ومثل الظروف التاريخية كمثل نهر ديموقريط • لذلك ينبغى ان ننظر اليها من حيث ذاتيتها اعتقادا منا انها وحيدة فى ذاتها ليس فى الوجود ما يماثلها تماما رغم الظواهر المضللة • فالنظرة التاريخية العلمية هى نظرة تؤمن بذاتية الامور وبحيويتها •

ومن المؤرخين من يدرس التاريخ دون ان يتخلى عن اختياراته الشخصية كالمعتقدات مثلا حتى يدفع به ذلك الى تشويه الحقيقة كأولئك الذين آمنوا بنظرية الاجناس البشرية الصريحة وبتفوق الجنس الآرى على الجنس السامى مثلا • تغلغل فيهم ذلك الاعتقاد حتى تلونت به دراساتهم وتلوثت به الحقيقة التاريخية • وكلما تناولوا الحضارات السامية بالبحث حاولوا جهدهم اظهار نقاط الضعف فيها وقد يجعلون من القوة ضعفا عن وعى او غير وعى والاثم فى الوجهين سواء • ذلك ما تتميز به نظرة غالب المؤرخين طيلة القرن التاسع عشر واوائل هذا القرن • شعرت اذاك القارة الأوربية بقوتها وضعف من يمثل الشعوب السامية فى نظرها فقالت بعقمهم فى ميادين الخلق والابتكار • وانكرت عليهم

كل مساهمة فى تشييد صرح الحضارة البشرية • فكان كفرا بالتاريخ وجريمة ازاء الحاضر •

قدموا لنا لوحة لا تصور لنا الماضى فى شىء بل تحكى معتقدات الذين رسموها ونظرياتهم الضالة العقيمة وقد ابرزت البحوث العلمية خطأها وعقمها مع ان بعض المؤرخين ما انفكوا متشبثين بها كالذين كتبوا تاريخ بلادنا القديم • كلما تحدثوا عن الأفارقة تبجحوا بابراز مواطن الضعف كذبا وبهتانا ومنهم من غالى فى الحكم عليهم حتى اكد انه من المستحيل ان تتكون دولة مستقلة فى شمال افريقيا بل مصير هاته الرقعة من الارض ان ترزح تحت نير الاستعمار • لقد أقام صرح هاته النظرية الاستعمارية المؤرخ الفرنسى Gauthier وقد واكبه كثير من المؤرخين الفرنسيين ايام الاستعمار • لا فائدة فى الاجابة على هاته النظرية العدوانية وحاضرنا يجيب ويرد عليها بقساوة •

ومما يؤسف اليه أن بعض الذين ساندوا هاته الافكار التى كان الاستعمار يرتاح لها ويغذيها ما انفكوا يعتبرون من ذوى القول الفصل فى تاريخ بلادنا القديم وما انفكوا يسيطرون على الابحاث التاريخية فيها بكل ما لديهم من دعاية وجاه فى الجامعات الباريسية الامر الذى قد لا ييسر تصفية التاريخ مما انتابه من تشويه وتلويث • فمتى يمكن لشباب تونس ان يدرس تاريخ بلاده من خلال ابحاث تونسية بحتة ؟ تلك قضية من قضايا تخليص البلدان الحديثة العهد بالحرية والاستقلال من رواسب الاستعمار ولعلها من اعسر القضايا واكثرها تشعبا •

ومنهم من لا يكتفى بالبحث عن الماضى بل ينظر اليه ويحكم له او عليه حسب مقاييسه الشخصية اخذها عن الوسط الذى يعيش فيه فهذا مؤرخ يتحدث عن الديانة البونيقية فيشهر بالبونيقيين لأنهم تعاطوا القرابين البشرية • وكلما أشار اليها الا ونعتها بالتوحش والقساوة اى حكم هذا المؤرخ عليها بالمقاييس التى نستخدمها حاليا عند الحكم • غير ان تلك النظرة النقدية تبدو لنا خاطئة مناقضة للتاريخ وقوانين البحث فيه • ان المرغوب من المؤرخ فى هذا الصدد هو الوقوف على ديانة البونيقيين والوقوف على ما كان يخالج قلب المؤمن البونيقى عندما يقرب ابنه اى اعز ما لديه فى الدنيا الى آلهة المدينة • فان استطاع ضبط تفاصيل الديانة البونيقية وضبط نظرة البونيقى نحو الآلهة والكون ومعرفة العوامل التى بعثت تلك العقيدة للوجود كان قد افلح وبلغ الهدف وانجز العمل الذى يرجى من وراء بحوثه • اما بالحكم للاشياء او عليها فهو ينحرف عن سبيل التاريخ ويشوه الحقيقة التاريخية • اذ الغاية فى البحث عن الماضى هو بعثه بحذافره بأحداثه ونظرة الذين عاشوا تلك الاحداث • وليس لنا ان نحكم عليها اولها حسب مقاييسنا الشخصية العصرية •

ان النقد فى هذا المستوى لا يعنى الحكم بل هو عمل فكرى آساسه الوثائق

الأصلية وهدفه فهم الماضى والعوامل التى سبكته · لان النقد فهم قبل ان يكون حكما ·

تلك حقيقة ينبغى ان تنير طريقنا فى ميادين البحث جميعها وفى ميدان التاريخ بخاصة · عنق المانى عن بعض الكتب التى تتعلق بتأريخ الفن فقال : انه يود رسالة فى تاريخ الفن لا وجود فيها للفظة « جميل » ذلك ان تلك اللفظة وما شابهها تعرب عن حكم شخصى والمؤرخ ناقد ليس الا · فان تناول بحثا فى تاريخ الفن اليونانى او البابلى فليس له ان يعرب عن شعوره الخاص تجاه ذلك الفن بل عليه ان يبحث عما كان يخالج نفس الذى نحت التمثال او نظم مكعبات الفسيفساء ونسق انوانها ، فالمظاهر الفنية فى نظر المؤرخ طريقة تمكنه من الوقوف على اسرار الحضارة البشرية · وقبل ان ينظر فى جمال الشىء او قبحه ينبغى ان يقف على العوامل التى جعلته ينشأ كما ينشأ· ذلك هو النقد الحقيقى·

اما اذا اراد الحكم على مظاهر الحياة الفنية او لها فى حضارة ما وجب عليه ان يحكم استنادا على مقاييس تلك الحضارة ويكون قد أخطأ خطأ عظيما اذا استخدم عند الحكم مقاييسه الشخصية او مقاييس حضارة اخرى · نحن نلمس هذا الخطأ بين مؤلفات المؤرخين الذين كتبوا عن الحضارة البونيقية وفنها · نظر الاستاذ جيلبار بكار الى ما ابقته لنا قرطاج من تحف ولو كانت ضئيلة لما اصاب مدينة عليسة من حرق ونهب ودمار · وبعد نظرة سريعة افصح المؤرخ بكار (Picard) عن حكمه القاسى تجاه المدينة وحضارتها حيث يقول بعجز البونيقيين فى الحقل الفنى وحكم بقوله : ان التحف التى نجدها بقرطاج تنقسم الى قسمين فبعضها يرتدى قيمة فنية وهو من الواردات وبعضها ينم عن العجز والرداءة وهو من صنع اليد البونيقية ·

انه لحكم ظالم ينم عن سوء فهم بل هى نظرة خلت من روح النقد التاريخى النزيه · فعوض ان يصدر هذا الحكم كان عليه بادىء ذى بدء ان ينظر الى ما بقى لنا عن الحضارة البونيقية والظروف القاسية التى سلطت على قرطاج ايام الحرب الثالثة · ولئن فعل لما تجرأ على اصدار ذلك الحكم · هذا وعوض ان يحاول فهم الاشياء أسرع الاستاذ بكار بالحكم عليها وكان متشبعا بالحضارة اليونانية الرومانية متشيعا لها ومتعصبا لمقاييسها · فكانت نظرته نحو التراث البونيقى نظرة من خلال منظار يونانى رومانى الأمر الذى يحرمه النقد التاريخى النزيه أجل ان الفن البونيقى خاصة والفنون الشرقية عامة لا تحتذى قوانين الطبيعة بل قد تعاكسها · ولم يقصد الفن البونيقى محاكاة الطبيعة وان اقتبس بعض عناصره منها · من ذلك نرى ان الهدف فى دراسة الفن البونيقى مثلا ليس فى الحكم عليه او له حسب مقاييس لا صلة لها بالعالم البونيقى بل الهدف هو الوقوف على العوامل التى جعلت البونيقيين ينحتون صورا بأشكال معينة والوقوف على ما يسعون اليه من وراء ذلك · اما الحكم فلا ينبغى ان يكون من حيث ما نسميه

جمالا او قبحا بل يكون فى مدى التناسق والانسجام بين مظاهر ذلك الفـــن والاهداف التى يرمقها ٠

فان كان الهدف من زخرفة نصب التوفات هو التعبير عما يخالج قلب الذى يقرب ابنه الى ربه وتمكن النحات فعلا من التعبير عن ذلك بواسطة تلك الزخرفة وجب علينا إذ ذاك أن نعترف بقيمتها الفنية ونكون قد حكمنا استنادا الى مقاييس تؤمن بها الحضارة البونيقية ونكون قد قمنا بنقد الفن البونيقى نقدا تاريخيــا نزيها ٠

هكذا يتبين لنا ان النقد فى البحوث التاريخية يكون فى مرحلتين ففى المرحلة الاولى تهدف نظرته النقدية الى اثبات الوثيقة او طرحها من ملف المسالة التى هو بصدد حلها والمرحلة الثانية تتجسم فى فهم محتوى الوثائق قبل الحكم لها او عليها مع ان ذلك الحكم ينبغى ان يستخدم مقاييس تؤمن بها الحضارة التى هو بصدد دراستها وبعث ماضيها للوجود الامر الذى يحتم عليه فهم تلك الحضارة فهما عميقا يوقف على مقاييس الحكم المستكنة فيها ٠ ومن ذلك نتبين أن النقد فهم قبل ان يكون حكما ٠

محمـد فنطـر

الشعـر المطبـوع والمصنـوع (*)

ومن الشعر مطبــوع ومصنــوع ، فالمطبوع هو الاصل الذى وضع أولا ، وعليه المدار ٠ والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل ، لكن بطباع القوم عفوا ، فاستحسنوه ومالوا اليه بعض الميل ، بعد أن عرفوا وجه اختياره على غيره ، حتى صنع زهير الحوليات على وجه التنقيح والتثقيف : يصنع القصيدة ثم يكرر نظره فيها خوفا من التعقب بعد أن يكون قد فرغ من عملهـا فى سـاعة أو ليلة ، وربما رصد أوقات نشاطه فتباطأ عمله لذلك ، والعرب لا تنظر فى أعطاف شعرها بأن تجنس أو تطـابق أو تقـابل ، فتترك لفظـة للفظ ، أو معنى لمعنى ، كما يفعل المحدثون ، ولكن نظرها فى فصاحة الكلام وجزالته ، وبسط المعنى وابرازه واتقان بنية الشعر ، واحكام عقد القوافى ، وتلاحم الكلام بعضه ببعض ٠

(*) من كتاب العمدة لابن رشيق ٠